كبطولة في الأدب العربي منذ سقوط بغداد حتى فجر النهضة

بقلم الدكتور شاكر مصطفى

حين كان ابن الاثير يكتب تاريخه الكامل يقص فيه سيرة هذه الامة التي خرجت من الجزيرة تحمل دعوتها ولغتها ورسالتها الى الناس ، وتنشر مثلها الرائعة وقيمها الكريمة ، حيث كانت تحل من الارض ، وتخرج من اسار العبوديات الثكيله وتطلقهم في آفاق الحياة الحرة ، وتنفخ في وجودهم المتداعي روح الوجود الحق الذي يربط الانسان باسمى ما في الانسان ، بعقله ، ويربط عقله بابعد آفاقه ، بالله .. وتفجر اقوى ما فجرت الانسانية من قوى ، قوة الفكر .. حين كان ابن الاثير يمر بهذا التاريخ ، واحداثه ووقائعه ، صفحة بعد صفحة ، وسنة بعد سنة ، كان يحرص على ان يكون عرضه وتناوله سليما نقيا .. يجتهد في تحري الصواب ، ويسند الحادثة التي تستحق الاسناد الى اصحابها .. وكان في اكثر اجزاء تاريخه حريصا على ان يقف من الوقائع والاشخاص والاحداث موقفا موضوعيا .. وقد يتأثر بهذا العامل او ذاك ، وقد ينفعل هذا النوع من الانفعال الملائم او ذاك من الانفعال المعاكس ، ولكنه على كل ذلك كان حريصا على ان لا يدع لهذا الانفعال ان يكون له انعكاسه فيما يروى او ينقل .. انه ، بمعنى اخر ، حرص على ان يقف من الاحداث موقفا حياديا .. فاذا انت تقرأه حين تقرأه فلا يصدمك فرحه وحزنه ، رضاه او سخطه .. وما اكثر الاحداث التي مر بها ، والوقائع التي عرضها ، وما اغنى هذه الاحداث والوقائع .. منذ نشأت هذه الامة العربية الجديدة ... ولكن ابن الاثير هذا حين بلغ الحديث عن قصة اعنف غزوة همجية سربلت العالم ، والتهمته كما يلتهم حوت هائج سمكة وادعة جميلة ، ترقص اجنحتها السحرية المذهبة رقصة الحياة السعيدة ، حين بلغ هذا كان مجرد ذكرى هذه الغزوة يثير عنده الهول والفزع .. ومن المؤكد انه احس الجفاف في حلقه ، وان قلمه ذا الشباة المنطلقة المرهفة التي كانت تنفرج عن الحديث الشهي الطيب رجف في يديه رجفة الاشفاق ان يسطر قصة هذا السيل الهمجي الغاشم الذي اتى في طريقه على كل معالم الحضارة التي صاغتها الحياة العربية من الق عيون ابنائها ذرةبعد ذرة، من توهج الابداع وبريق الحدس،من صوب العقول،وحصاد الذهن البشري الذكي ، حين يجمع الى ثقافته كل الثقافات التي سبقته ، والى تجاربه كل التجارب التي تقدمته والى حماس الرغبة قوة الارادة وجلد البحث ، وداب العمل وسهر الليل الطويل في سبيل الحرف والرمز والكلمة والفكره .. وفي سبيل الخط والرقم والمعادله ، وفي سبيل الصبغ واللون والتركيب .. حتى كان من كل ذلك هذه الحضارة التي انتشلت ماضي الانسانية ، وانقذت الفكر القديم من وهدة الجهالة التي آل اليها ، ثم اغنته ، ورفدته ، واضفت عليه واضافت اليه ، وشقت له طريق المستقبل ، هذا الذي يعيش فيه اليوم .. اجل لقد رجف القلم في يدي ابن الاثير .. ما ارتضى ان يكون هو الذي يسطر للاجيال ، لكل الاجيال الانسانية من بعده ، هذه المأساة .. فأغفل الحديث عنها سنة بعد سنة ودافعه عاما بعد عام .. حتى اذا لم يجد متأخرا بدأ حديثه عن سنة سبع عشرة وستماية بهذه الصفحة التي صاغها من دموع عينيه ومن دموع قلبه على السواء .. هذه الصفحة التي كانت كأنما هي دفعة اهات حرى .. ولو كان لها ، هذه الصفحة ، ان تحيا في وجدان شاعر لصاغ منها اروع اناشيد الالم في تاريخ الانسانية منذ كانت .

تمنيت ايها السادة لو قرأت عليكم هذه الصفحة.. انها تصف كيف خرج التتار كالسيل الهادر يجرف كل ما في طريقه،فاذا الاشجار احطاب وخضد والبيوت احجار ، والمدن خرائب .. واذا العاصفة تذور كل شيء ، واذا هؤلاء المنطلقون كأنهم جن اسود ، قد انشعبوا هنا هناك كاقدام اخطبوط مسلطه في كل وجه ، فاتوا على المدن كما يأتي سرب من جراد على جنة ارض ، فيجعلها جذوعا يابسه ، لا ثمر ولا شجر .. والى ذلك ال امر كاشغر وسمرقند ، وتعالت السنة النار في بخارى ، وقودها كل ثمرات الفكر وقطع الخارجون خراسان تخريبا وقتلا ونهبا ، ثم تجاوزوها الى الري وهمذان ، والجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق ... اما اذربيجان فقد قتل اكثر اهلها لم ينج الا الشريد النادر .. ثم قصدوا القفجاق « القفقاس » فقتلوا كل من وقف لهم وهرب الباقون الى الفياض ورؤوس الجبال ، وفارقوا بلادهم واستولى عليها هؤلاء التتر .. ومضت طائفة اخرى منهم الى غزنه وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها ما فعلوا في غيرها ، وانطلقوا في كل صوب لا يمنعهم مانع .. والتقى على هذا الوطن الكبير خطر هؤلاء التتار من نحو ، وخطر الصليبيين الذين قصدوا دمياط من نحو اخر ، واشرفت ديار مصر والشام وغيرها على ان يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم كما يقول ابن الاثير . اما الذي سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق ..

تلك كانت الصورة الكالحة لوطننا الكبير في هذه الفترة : خطر خارجي محدق ، واطراف مهددة ، وفتن داخلية مضطرمة .. لقد تقدم التتر واستقام لهم هذا الامر لعدم وجود المانع على حد تعبير ابن الاثير .. اجل ايها السادة لم يعد هناك هذا المانع الذي يقف لهذه القوى الخبيثة، المهاجمة ، المفاجئة .. لم يعد هنالك مانع مادي ، فقد تبددت القوى وتكسرت الوحده واخذت تتاكل اطراف هذه الدولة الكبرى مع الاحداث حتى لتوشك هذه الاحداث ان تنال القلب .. بل انها نالت فعلا بغداد مع التتر ، واطراف الشام وسواحله مع الصليبيين ، .. وضاقت على هذا القارب العربي الذي كانت الافاق البعيدة ادنى حدوده ، ارضه من حوله ، واختلف فيه الملاحون وعزفت الامواج على المجاديف نشيد الموت .. لولا ان الشعلة التي انطلقت من الجزيرة كانت لا تزال تتالق كالشموع

« الآداب » بالاقليم الشمالي

بسبب ارتفاع فرق العملة بين الليرة اللبنانية والليرة السورية ، اضطرت ادارة « الآداب » الى رفع ثمن العدد في الاقليم الشمالي من ١٠٠ قرش سوري الى ١٢٥ قرشا سوريا .

وسيسري هذا التدبير ابتداء من العدد القادم ، عدد فبراير (شباط) ١٩٥٩

في بعض النفوس الصافية ، تغالب ظلمة الليل وتنهض وحدها لجيوشه السود تكشفها وتفضحها ، وتحمل خفقاتها معنى القلب الذي لا يزال ينبض بالحياة .. ولولا ان القارب لم يعدم بعض ملاحيه كنور الدين وصلاح الدين والظاهر كانوا ينذرون ارواحهم لحمايته ، ويقف الواحد منهم وراء الاخر في سلسلة الاحداث اروع ذكيا كجبل شامخ يستعلي على كل ما في الوادي والسفح ، يعرى ذراعيه وقد بدت عروقهما ، يحرز السفينة ويسير معها وسط الضباب والموج من مسرب الى مسرب حتى ينتهي بها الى الامان .

في هذه الفترة وفي فترات حولها ، قبلها وبعدها ، كانت البطولة التي تكشفت عنها الروح العربية في ذلك الحين تعني المقاومة والتكبر على الاحداث .. اريد ان اقول تعني نشأة المقاومة وتكونها وتجمعها حتى تقف بالاعصار الآتي من الشرق والاتي من الغرب على السواء للاعصار التتاري والاعصار الصليبي ، وبدت هذه البطولة في دفع الصليبيين مرة بعد مرة حتى خرجوا عن مصر والشام ، وارتدت القدس مدينة من مدن العرب وحرما مقدسا من حرمات الاسلام .. وانكشف الدخلاء عن الساحل والداخل ، وتبدت كذلك في هزيمة التتار ، والوقوف بمدهم هذا الطاغي في معركة عين جالوت حين رد الملك الظاهر جيشهم العاتي واذاقهم طعم الهزيمة بعد ان كانوا لا يعرفون الا حلاوة الانتصار ... وكانت بطولة جيش الظاهر لا تحمل معناها المادي ، فلعل معناها المادي هذا ان يكون اضعف ما فيها .. وانما تحمل معناها البعيد في صيانة الحضارة المدنية وثمرات الفكر ان تكون طعمة للنار يوقدها رعاة الاغنام والابقار والخيل .

والمقاومة : روح المقاومة وخلق المقاومة ، وايقاظ معاني المقاومة والحيلولة بين الناس وبين ان يغرقهم الاستسلام ويتملكهم اليأس واثارة كل مافي نفوسهم من امجاد وقيم ، وشدهم الى مثل اعلى هدفه ان يدفع الدخيل الخادع وان يمكن للاصيل المؤمن .. هذا كله ابرز معاني البطولة في جزء كبير من هذه الفترة التي حدثتكم عنها .. انها لم تكن بطولة مادية فحسب وانما كانت بطولة راى وكفاح من دون هذا الراي ، وبطولة تجرد وجهاد في سبيل هذا التجرد .

ولقد تعودنا ايها السادة ان نجد معاني هذه البطولات اول ما نجدها في عصر من العصور عند شعرائنا .. لان شعراءنا كانوا بحكم انهم من ابناء هذه الامة من نحو وبحكم صلاتهم بالسلطان من نحو اخر ـ كانوا اقدر الناس على ان يعبروا عن هذه المعاني وان يحسنوا صياغتها .. كان فيها التعبير عن انفسهم وكان فيها كذلك تحميل اصحاب السلطان مسؤوليتها مما وضعهم امام مسؤولية التاريخ والزمان .. ومن هنا ايها السادة كان شعر المديح جديرا ان ينظر اليه في تقويمنا للتراث الشعوري وفي دراستنا الادبية نظرة اخرى .. انه ليس دائما خور استجداء وذلة استعطاء .. اننا نظلم روح المتنبي الدافقة وشموخ ابي تمام المستعلي وتمكينهما للقيم الاصيلة في النفس العربية حين نعد شعرهما في المديح مديحا فحسب .. بل لعل المديح ان يكون ثوبه الظاهر قالبه او شكله الخارجي او مناسبته العارضة .. ان الروح ، روح تقديس ، الاستشهاد عن نصر او هزيمة هي التي املت على ابي تمام رائيته في رثاء محمد بن حميد الطوسي .. وهدير الروح العربية العميق كهدير المياه الجوفية تنبجس من نبع متدفق هي التي كانت تدفع المتنبي ان يقول مؤمنا بسيف الدولة او كافرا بكافور .. ومن ذا الذي يزعم ان العطاء وحده هو الذي كان يدفع القيسراني الى ان يقول مهنئا وزير نور الدين « جمال الدين ابو جعفر الجواد » بفتوح مدينة الرها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة .

أما آن ان يزهق الباطل ... وان ينجز العدة الماطل
الى كم يغب ملوك الضلا ... ل سيف باعناقها كافل
فلا تحفلن بصول الذئاب ... وقد زأر الاسد البازل
هو السيف الا تكن حاملا ... لبزته بزك الحامل

الى ان يقول يستعجل فتح القدس واستخلاص السواحل .

فان يك فتح الرها لجة ... فساحلها القدس والساحل

وهل كان العطاء وحده هو الذي يدفع القيسراني ان يقول مهنئا نور الدين باستقرار امر دمشق له ، ناقضا بين يديه احلام الناس وامانيهم

كاني بهذا العزم لا فل حدة ... واقصاه بالاقصى وقد قضي الامر
وقد اصبح البيت المقدس طاهرا ... وليس سوى جارى الدماء لمطهر

اليس هذا الذي كان يقوله هؤلاء الشعراء في هذا العصر المتاخر او ذاك المتقدم انما يعبرون به عن روح الجماعة المنطلقة .. عن آمالها التي تتحرق ـ اعماقها اندفاعا للوصول اليها ؟ .. الم يكن هؤلاء الشعراء في هذا لهاة الناس .. لسانهم ..؟ .. ليكن ما يكون من امر هذا القالب الخارجي الذي صيغ فيه هذا الشعر ..ليكن المديح قالبه ، وطلب العطاء بعض ما فيه ، فليس ذلك شيئا امام روح الامة التي كان يعبر عنها الشعراء بهذا الشعر .. وقد ان لنا بعد ان نسمي الاشياء باسمائها البعيدة وان نطرح عنها هذه الاثواب الزائفة التي كسيت بها .. آن لنا ان نقول ان ما نسميه هجاء او مديحا ليس الا طرفا عارضا في القصيدة ، وان القصيدة من قبل ومن بعد ليست حين تكون في موضعها الحق من الصدق النفسي والتجاوب مع مطامع الجماعة والتعبير عن مطامعها والتمثيل لتطلعها ليست الا روح هذه الجماعة وتصويرا لمثلها الاعلى وتعبيرا عنه .

***

واذا كان هذا حقا في اكثر فترات الازدهار في حياتنا الادبية ، تدل عليه القصائد ، وتنبيء عنه الاشعار .. فان فترات الانحطاط بعد سقوط بغداد تؤيد ذلك تأييدا سلبيا .. ذلك لاننا ننظر في الشعر الذي قيل في هذه الفترة ، في مرحلتيها المتميزتين مرحلة التتار ومرحلة العثمانيين، فلا نجد شعرا ذا بال ، بله ان نجد القيم البطوليه التي يعبر عنها الشعر او يبشر بها ، نجد قصائد ومجاميع ، وتطالعنا مختارات ودواوين ، ولكننا لا نجد الا في النادر الشعر الذي يعبر عن روح الجماعة ويمثل تطلعها .. اننا نجد موسيقى الشعر ووزنه ولكننا لا نحس حرارته ، ولا يتوهج في اعيننا القه .. كل مظاهر الشكل نلمحها ، ولكن ابرز سمات الروح تخفى علينا .. فما الذي حجب عنا اصالة الانتاج الفني شعرا كان او نثرا ؟..

ما الذي رد هذه الزهرات الندية زهورا اصطناعية جافة جامدة لها شكل الزهر ، ولكن ليس فيها النسغ الروحي الذي فيه ؟! وبالتالي ما الذي حجب القيم الكريمة في اعماق الروح العربية ؟!..

ان تفسير ذلك لا يبدو عسيرا .. ان الروح العربية ـ كاننا من كان اولئك الذين ممثلوها خلال هذه الفترات قبل سقوط بغداد ـ فعلت كل الذي استطاعت فعله .. صدعت بالدعوة ، وحملت الرسالة وطلعت الى الناس بعد جاهليتها بروح انسانية عريضة تجعل من الانسان المؤمن مركز الحياة في الارض، وتسخر له كل شيء في الافاق.. ولكن هذه الروح العربية بالذي انتدبت له من امر هذه الحضارة الانسانية العريضة التي ارادت ان تبنيها ، لقيت كل العراقيل ، فجاهدت وعملت ، وعلمت وعلمت ، حتى اذا ادركها بعض الاعياء اثرا لهذه السلسلة من الارواح الخبيثة التي وقفت في طريقها ، روح العصبية فيها ، وروح الثار عند الذين اججوا الفارسيه، وروح التسلط عند الذين بعثوا التركيه وروح الخراب مع هذا الاجتياح المغولي ، وروح التعصب والحقد في هذا الخطر الوافد من الغرب .. الروح العربية السمحة حين لقيت كل هذا وقفت عند الذي اشاعته واشعته ثم تركت لهذا الخليط المضطرب ان يفعل ما يشاء ، فاذا العصبية المنحرفة تفسد المعنى القومي السليم ، واذا الفارسية تفسد الروح الاسلامية التي تقوم على المساواة ، واذا التركيه تفسد روح الدولة ، ومع ذلك فقد ظلت الروح العربية تغالب ذلك كله بحضارتها وثقافتها ورسالتها ولغتها ، غير ان بدائية المغول وعصبية الصليبيين الغربيين تستنزف في هذه الفترة الزمنية التي نتحدث عنها ما بقي في روحنا الاصيلة من قوة. فاذا نحن ننزاح عن مكان الريادة ، ولا يكون للعروبة الصافية بمعناها الذي خرجت به من الجزيرة موضع القيادة وانما تتنابع على القيادة هذه القوى المختلفة الهرمة والشابه ، ولكنها كلها لا تملك الاصالة وعمق الروح وتعمق المثل الاعلى القدر الذي كان للاجيال ، الاولى ، ولذلك لا يكون لها في دفع الركب البشري في طريق الحضارة الصاعد الا دور ثانوي ، وان كان توفر لبعضها من القوة ما فرض به وجوده ، وشيد ملكه ، واعطى الشرق معنى الهيبة في نظر اعدائه الغربيين.

ومع خمود الروح الاصيلة خمد الشعر منذ سقطت بغداد .. كان صوت صفي الدين الحلي اخر الاصوات التي نفخت فيها هذه الروح مزاميرها ، وقال صفي الدين شعره تتخلل ثناياه نفحات من الروح العربية المتنفضة .. حرض على المغول وحذر منهم وكان ذوو السلطان حوله يفقهون قوله لانهم كانوا بقية من هذه السيوف العربية التي سكتت اغمادها بعد ، او بقية من السيوف التي طبعت على غرارها السيوف الايوبية ومن اتصل بها متاثرا خطاها .. ولذلك نجد كثيرا من شعر صفي الدين معارضات ، ونجد عنده مثل الفخر الذي قرأناه في العصور الاولى .. ولكننا ندرك بوضوح ، ونحن نقرأه، اننا لسنا امام الشاعر الذي كنا نعرفه ، لسنا امام حسان او المتنبي او ابي تمام ، وان كان يلبس مسوح المتنبي ويكتسي اثواب ابي تمام ،ويستعير اوزانهما وقوافيهما. ان شعره صورة باهتة للشعر في معناه السليم .. ولقد خيل الي وانا اقراه كانما انا احيا في الكهف الذي ترتسم على جداره ظلال الاشياء .. ولكنني لا احيا مع الاشياء ذاتها ... ان صوته يرتفع احيانا كما يرتفع صوت الشعراء ولكنه لا يحمل دفقة قلوبهم ودفء عواطفهم ، وتلك هي التي تهب الاصوات عادة رنينها المتميز .

وفي الوسع ان نعتبر صفي الدين من هذا النحو في المشرق خاتمة

ـ التتمة على الصفحة ٨١ ـ

في المكتبات

حسين جميل
سفير العراق في الهند

العراق الجديد

• ثورة ١٤ تموز.
• لماذا حدثت واسباب الثورات بوجه عام.
• اوضاع العراق قبل الثورة.
• واهدافه واتجاهاته بعد الثورة.

الثمن ليرة واحدة

منشورات

دار منيمنه للطباعة والنشر - بيروت

الطلبات ترسل باسم صاحب الدار

منير منيمنه ص.ب. ٢٢٩٦

البطولة منذ سقوط بغداد حتى النهضة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٨ ـ

الشعر الذي يرنو الى المثل العليا ، وترتسم عليه بعض سمات البطولات العربية .. فأما الذين جاءوا بعده فد لفتهم نزعة العزلة التي آثرتها الروح العربية لمكان القيادة .

***

ومن هنا ايها السادة يعسر علينا العسر كله ان نتلمس معاني البطولة اية بطولة ، في الادب في هذا العصر .. وكلما مضينا مبعدين فيه شق علينا الامر .. قد نعثر على البيت او المقطوعة او الشاعر في لمحة خاطفة من لمحات الاشراق المفاجيء .. ولكننا لا نلمح الثروة الشعرية الكاملة لان الروح التي كانت تمدها آثرت الانكماش .

وكذلك ترون ايها السادة اننا نستطيع ان نلتمس البطولة كما كنا نلتمسها في العصور الاولى ، عصور الدعوة والانطلاق والامويين والعباسيين ـ من الادب اعني من الشعر والنثر ، وكما سنلتمسها بعد في عصور النهضة .. واننا ان نفعل ذلك فلن نجد شيئا .. سنقرأ كثيرا من الدواوين ، ونعرض عديدا من الشعراء ، وتطالعنا القصيدة بعد القصيدة . ولكنا لن نجد في كل القصائد التي نقرأها والشعراء الذين نتعرف اليهم ، والدواوين التي نعرضها ما نحب ان نقع عليه .. لن ينبض شعر هؤلاء الناس نبضة الحياة العميقة ، ولن نتحدث عن مواجد الارواح الذكية القلقة وتطلعاتها واهتماماتها البطولية .. ان الحرف الذي صيغ به هذا الشاعر عربي لم يتنازل عن عربيته في ذلك وان كان افسح للحرف التركي والفارسي مجالا كبيرا .. ولكنه حين تمسك بالحرف العربي لم يقبس معه شعلة هذا الحرف ولا وهجه ولا مرتكزه النفسي العميق الذي يقوم عليه ، ولا آفاقه البعيدة التي يفتحها .. لكأن الحرف العربي في هذا الشعر اصابه شيء من عمى ، فاضحى وقد سدت عليه منافذ الوجود .. ولكأن الشعر الذي صيغ منه جاء كذلك مقفلا صامتا ليست له المطلات الواسعة ، وتختبره تصغي اليه فلا تسمع له لا وسوسة ولا جلجلة ولا تحس له لذع الوهج او نشوة الدفء .

وقد قرات كثيرا من الشعر في هذه الفترة وفاء لشرف هذا الموقف فكان اكثر ما وجدت الغزل . كانت كثرته بالغة .. وكان الى جانبه الاحاجي والتهنئة بالاعياد والختان ، والاخوانيات التي تتشرب المعاني الانسانية الشاملة ولا تتفتح عليها .. ولم يكن في كل هذا الغزل الذي قرأته ماجنا او متعففا ما يصح ان نقف عنده .. وكنت اقرا فاجد ظلالا باهتة من شعر المتقدمين .. بل لعل الذي وجدته لا يعدو ان يكون اطلالا خربة للغزل الرائع الذي نعرفه في عصورنا الاولى والذي حاول ان يسبر غور النفس ، وان يتعمق دناها وان ينفذ الى سرائر الهوى ومسارب الحب.

بل كان اكثر الذي قرأته معادا مكرورا في كثير من التشويه .. وكنت اشعر كانما امضي في ارض قاحلة ترتع فيها بعض النباتات الشائكة لها اسم النبات ولها شكله ولكن لها منه خيره الذي ينفع انما هو شوكه الذي يؤذي ، واكثر من هذا ان هذا الغزل الجاف لم يحجب معاني البطولة ولم يستهلك قوى الجماعة الفنية واهتماماتها النفسية فحسب .. ولم يكن من سيطرته انه غطى اكثر جوانب النفس الانسانية في ذلك وانما كان له الى جانب هذا عمل اخر .. ذلك انه امتص معاني البطولة وافسد شعاراتها ـ فيما نقول بلغة اليوم ـ انه استخدم الفاظها ليشوه مفاهيمها، او ليعطي هذه المفاهيم مضمونا معاكسا يثبته في القلوب والاذهان كالذي نلمح اليوم من الاحتماء ببعض المفاهيم والطعن عليها في آن واحد ، الاستتار وراءها وتمزيق اطرافها .. وكان من اثر ذلك ان القنا والرماح والسيوف والنصال وهي بعض مظاهر القوة وادوات البطولة لا تتبدى في هذا العصر في وصف الجيوش والمعارك وساحات الجهاد قدر ما تتبدى في وصف القدود والعيون والنظرات .. واي ـ ترد ابعد من هذا ان لا تقع على السيف ، سواء في واقع الجماعة او في عملها الفني ، حيث يجب ان يكون من اعناق الطغاة او الظلمه وانما تقع عليه في هذا الرمز الذي يفسد طبيعته ويفسد طبيعة الغزل في آن واحد ... وحين كان العربي في مكانه الطبيعي من الحياة السليمة كان يذكر هذه الاشياء في نطاق الغزل ولكنه لا يترك لهذا الغزل ان يمسخ حقيقتها ويفسد طبيعتها ولا يتيح له ان يمتصها وان يشوهها وان ينسي ضمائر الناس جوهرها الاول .. وانما كان العربي يذكر ذلك فيعترف هذا القرن الرائع النفسي ،العميق، بين بريق السيوف وبين بريق الثغر حين تكون الرماح تنهل منه .. وتكون مهمة الغزل لا ان يفسد طبيعة البطولات وانما يكون من طبيعته ان ينمي هذه البطولات لانه يصقلها ، وان يكون خيال المحبوبة وجمالها هالة جديدة في هالات المعاني الانسانية العميقة تختط مثله الاعلى وتساعد على اجتلائه وصقله .. كان العربي الاول يقول ما قال عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لانها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

اما الذي كان يقال في هذه الفترة فذلك مثل الذي يقوله شاعر اسمه يوسف المغربي (١) :

جعلوا الشعور على الخصور بنودا والرح ريقا والشقيق خدودا
جعلوا الصباح مباسما ثم الظلا م ضفائرا ثم الرماح قدودا
والورد خدا والغصون معاطفا والشمس فرقا والغزالة جيدا
ورأت غصون البان ان قدودهم فاقت فاضحت ركعا وسجودا

وكان من الحق ان لا اذكر لكم مثل هذا المثال حتى لا افسد عليكم نشوة الابيات الاولى .

ونحن في هذا لا نأخذ على هذا الشعر انصرافه الى الغزل ، فليس ذلك من غرضنا في شيء ، ولا نريد ان نحمل الادب معنى معينا فما ذلك من طبيعتنا في شيء ، ولكننا نريد الى القول ان هذا الغزل فقد صلته بالنفس الانسانية ، فلم يعد هذا الحنين وهذا الشوق في مواكب الروح المتفتحة للجمال او للحق ، او للجنه ، بل انه باعد ما بينه وبين الجمال الحق ، والحق والخير ، والخير الجميل .

وما يقال عن الغزل يقال كذلك عن كل الفنون الشعرية الاخرى ... اطلال ليس فيها رائحة اصحابها ، وظلال ممسوخة لا يرتسم من تموجاتها صورة نافذة ، ولا تدفع ايحاءاتها بالناس الى اعلى من المستوى الذي فيه يتمرغون .

وكذلك غابت ايها السادة معاني البطولة في العمل الفني من وجهتين اثنتين اولاهما ان واقع الجماعة نفسه لم يكن من الغنى النفسي بحيث يستطيع ان يتمثل اعمالا فنية قيمه .. والاخرى ان امال الجماعة نفسها لم تكن من التفتح ومن الازدهار ، بحيث تشحذ الالهام وتصقل المشاعر فيتولد

(١) ريحانه الالباء ٢٣٥

عنها هذا التوق الى عمل بطولي ، او هذا الرمز اليه ، او هذا التبشير به.

***

لن نقع على معاني البطولة اذن في الادب بمعناه الضيق الخاص ، أعني في الشعر والنثر .. ولكني قلت لكم في مطلع الحديث ان معاني البطولة في هذه الفترة تتمثل في المقاومة ، تتبدى في التأبي .. تحاول ان تتلامح مع كلمة « لا » حيث يجب ان تقال « لا » .. فمن أين استقينا معاني البطولة هذه؟..أين نقع عليها اذا لم نقع عليها في الشعر والنثر؟

لنخرج أيها السادة من نطاق الادب بمعناه الضيق من حيث هو شعر ونثر ،فقد عجز الشعر والنثر عن ذلك لم يسعفه الواقع ولم تسعفه الاماني، ولنلتمس بطولة هذه الفترة من تاريخنا في الادب بمعناه العام .. وما اسرع ما نقع عليها .. ما اسرع ما تبدو لاعيننا وتملأ قلوبنا روعة في سيرة كثير من العلماء في ذلك الحين في اسلوب حياتهم من نحو وفي عملهم العلمي من نحو اخر .

والاتصال بحياة هؤلاء العلماء الذين سكبوا نور عيونهم ليوقدوا به شعلة المعرفة ، وليحفظوا عليها القها والتعرف اليهم هؤلاء الذين حفظوا قيم الجماعة العليا واحتفظوا بمثلها حية نابضة ليسلموها بعد لاجيال النهضة .. هو الذي يكشف لنا عن صور البطولة . ففي سيرتهم تتمثل معانيها ، وما كانت حياتهم الا تجسيدا للمثل الاعلى الذي رسمت الحركة العربية مع الرسول الكريم ابعد ذراه .

واذا كان الشعر تبدى لنا ، ونحن ننبش هذا التراث ، كالنبعة الجافة يشير مجراها الى ماضيها الثر على حين رلهث الحصا فيها من ظمأ ، ويتحرق التراب من جوع .. فان النبع في الحق لم يجف وان كان كذلك بدا لنا .. انه غاض هنا على السنة الشعراء والناثرين ، ولكنما انبجس هناك في سيرة العلماء والمصلحين .. انه تخلى عن ثوبه الفني ليتبدى في ثوبه الواقعي في سلوك هؤلاء الذين سنشير اليهم في صرامة هذا السلوك ـ وفي مواقفهم في اصالة هذه المواقف ونبلها ، وفي حوادث حياتهم في ارتفاع هذه الحوادث عن المستوى النازل الذي كانت تتردى فيه الحياه.. وكيف يجف النبع ومن ورائه هذا الرصيد الفخم ، من ورائه يمده سبعة ابحر ، وسبعة قرون ، من الحركة والفكرة ومن الدعوة والجهد ، ومن التنمية والتنشئة ، ومن الثقافة والعلم ، ومن الحياة والفنى .. ان اوسع المغول ، مغول كل عصر ، ان يهدموا طاقا او قصرا او جسرا ، ولكنهم لا يملكون ان يهدموا القدرة المستكنة على ابداع شيء مماثل .. بل لعلهم يتيحون للذهن الانساني الحر ان يجدد في بنائه وان يتخلص من بعض عيوبه .. انهم يستطيعون ان يحرقوا الكتب ، ولكنهم لا يطفئون الاذهان ، وقد تختل الذاكرة الفردية ، ولكن ذاكرة الجماعة لا يمكن ان تختل او تموت .. والذين ازعجوا العربي عن مكانته ، وتنزلوا منزلته انما اتاحوا له فترة من استجمام يستطيع معها ان يجمع نفسه، وان يرمم قواه لينطلق بعد انطلاقته الجديدة ، وان يبدأ حركة الحفاظ والمقاومة من هذين القطرين المتجاورين المتكاملين في كل مراحل التاريخ ، من الشام ومصر على السواء .

وحين نأخذ انفسنا بدراسة سيرة هؤلاء العلماء في هذه العصور تتمثل لنا مظاهر البطولة في ناحيتين اثنتين :

١ ـ اولاهما في العمل العلمي الذي التزموه.

٢ ـ والاخرى في الخلق العلمي الذي احتذوه .

ومن تجاور العلم والعمل ، الخلق والخلق كان نسيج البطولة التي رعاها هؤلاء العلماء .

١ ـ اما عن العمل العلمي فما احسب ان الوقت يتسع لاحدثكم عنه.. حسبي ان اذكركم بهذه الافكار الشائعة التي تعرفونها من ان عمل العلماء في هذا العصر كان استحياء لهذا التراث الذي دمره التتار في تحريق بخارى وتفريق بغداد،او الذي انصرف عنه من جاء بعدهم.. كانت الموسوعات في كل جوانب المعرفة هي تجسيد هذا التراث ،من جديد ، صيانته، وتقريبه ، والحيلولة بينه وبين ان يمتد اليه الضياع .. وبذل العلماء في مصر والشام وفي غير مصر والشام في هذا السبيل من الجهد ما يبعث على الاعجاب حقا .. كان معنى الحفاظ في الحياة العلمية هو الذي يملأ اذهان هؤلاء الاعلام .. والحفاظ اول مراحل المقاومة ، وكان لهذا الحفاظ معناه الحضاري العميق ، فاقبلوا عليه : جمعوا ودونوا وانشاوا هذه المؤلفات الفخمة انشاء جديدا في تصنيفه وتبويبه .

ولكني لن اترك هذا الحديث الذي تعرفونه عن الحفاظ العلمي قبل ان اشير الى جانب هام منه يلفت النظر طيلة هذه الفترة من سقوط بغداد حتى عصر النهضة ..وذلك ان الحفاظ اولى صفاء اللغة اعظم اهتمامه .. والعجيب انه رغم كل الامواج الهادرة الطارئة على الحياة العربية ، ورغم كل العناصر الدخيلة التي لم يقدر لها ان تعربت كما تعربت العناصر الغريبة في العصور الاولى .. فان عددا كبيرا من المؤلفات في الغريب والدخيل يعود الى هذه الفترة ، وعددا كبيرا من المعاجم والمراجع اللغوية انما هو ابن هذه العصور .. لكأنما استيقظ في اعماق الجماعة آنذاك ان الصفاء اللغوي هو اول معاني الوجود المتميز .. وان هذه اللغة التي وعت ثقافة الذهن البشري كله ، انما هي احدى النقاط الرئيسية للانطلاق نحو شوط جديد في الطريق الانساني الرحب .. وان كل حركة مقاومة للضغط او استعلاء على الواقع السيء يجب ان يكون لها جذورها العميقة في روح الجماعة وما من شيء اخر يغذي هذه الروح ويثير عندها ابعد آمالها وارفع مثلها ويجمع حولها الاغراض والاهداف كاللغة .. يحمل كل حرف منها حيث وجد من كل كلمة شحنة ضخمة من فكر وعاطفة ومثل .

ولست لاعدد لكم هذه الكتب اللغوية ولا العناية التي بذلت فيها حرصا على الصفاء اللغوي .. ولا ما كان من اثرها البعيد في ربط حلقات هذه السلسلة من تاريخنا ، بل ومن وجودنا .

٢ ـ هذا عن العمل العلمي . اما عن الخلق والسلوك في حياة هؤلاء العلماء والافاق الرفيعة التي كانوا يمتطونها الى غاياتهم فذلك الذي اريد ان اقف بكم عنده ... لانه هو الذي يمثل ، في صفاء الق الشمس ووضوحه استمرار تقاليد البطولة في تاريخنا الطويل .. ولن استطيع ان اقول كل الذي اريده ، انما احب ان اسمي لكم ثلاثة او اربعة من ابرز من عرفنا من رجالنا في هذه الفترة او قريبا منها العزابن عبد السلام « ٥٧٧ ـ ٦٦٠ » والنووي « ٦٣١ ـ ٦٧٦ » وابن تيميه « ٦٦١ ـ ٧٢٨ » وتلميذه بعده ابن القيم « ٦٩١ ـ ٧٥١ » واخرون كثيرون .

والحق اننا حين نعرف حياة هؤلاء الاعلام يروعنا منهم في ضباب هذه الاحداث السود ، هذا الضباب الكثيف الواطيء الذي يكاد يلامس الارض ويغطي الطريق على السالكين ـ يروعنا منهم هذه الشخصية المتوثبة المتفجرة التي استطاعت بقوتها وصلابتها ان تعدى كل شيء حولها ، وان تحيل ضعفه الى قوة ، وتخاذله الى نصرة وتفرقه الى وحدة ، ومعاني الانسانية المنكسرة فيه الى مثل صورها السليمة الاولى .

ولم يكن هؤلاء الاعلام يستمدون ذلك من جاه موقت او سلطان زائف .. لم تكن لهم اصول عريقة ولم يحملوا على اكتافهم شجرة انساب .. وما

احتموا قط بما يحتمي به الناس : ظل امير ، او نفوذ متسلط ، وانما نسخوا ظلال الامراء المبطلين وكشفوا زيف وجود السلطان الضال .. وقالوا على مسمع الدنيا كلها : هذا لن يكون ، فلما لم يستجب لهم السلطان طوعا استجاب لهم كرها .

قيمة هؤلاء الاعلام ايها السادة في هذا السلوك المتفرد الفذ انهم جسدوا اولا معاني البطولة التي اوشك ان يأتي عليها الزمن ، وان تدفنها الاحداث بايديها التي تقطر منها الدماء .. وانهم احيوا في نفوس العامة ، نفوس الجماهير،من اقصى الارض الىاقصاها ايمانها العميق بان السيطرة ليست للرغبات الضالة ولا للاهواء المنحرفة ، وانما هي : هذه السيطرة الحكيمة العادلة ـ لله وحده .. فاستردت هذه الجماهير ايمانها ، ولمعت لاعينها دائما من خلال هذا الايمان صور المستقبل المزدهر صورة للبيع الذي تبشر به الطيور الصغيرة من خلال الضباب والسحاب والمطر المتساقط.

وقيمة هؤلاء الاعلام انهم زرعوا الخوف في نفوس الظالمين .. وليس شيء يهدم الظلم مثل ان يداخله الخوف ..

وقيمتهم كذلك انهم صححوا الطريق للمجتمع الهائم كله آنذاك ..ادركوا بداية الانحراف منذ فقد الناس ثقتهم بعدالتهم ، فارتدوا بهم الى بداية الطريق .. عرفوهم انفسهم وعرفوهم ربهم ، وقالوا لهم هذه سنن الله سنن الكون في الخلق ، فليس لكم بعدها ان تهابوا او تجزعوا ... فاذا هذا التحديد الرائع البسيط يؤتي ثمرته بعد حين في حركات الاصلاح التي تتالت بعد ذلك اول عصور النهضة .

كذلك كان من قيمة هؤلاء ايها السادة انهم كانوا في سلوكهم تعبيرا حيا عن دعوتهم .. انهملم يقولوا للناس قاتلوا ونحن هنا قاعدون ، وانما قاتلوا معهم .. ولم ينهوهم عن الاثم وهم غارقون في الاثم ... ولم يدفعوهم في حيث لم يندفعوا هم قبلهم .. ان سلوكهم كان كالشراب المصفى لا تلمح فيه قذى .. كان كصفاء العين ، القذاة ـ الصغيرة تفسد عليها الرؤية الصحيحة وتبعث فيها الدموع وتحيلها الى عطاله ، لا ترى ، ولا يرى الناس منها الا الجفن الغليظ الاحمر .

من كل هذا ندرك كيف كان هؤلاء الاعلام يحملون معاني البطولة : بطولة الرأي والفكر ، وبطولة الخلق والسلوك في هذه الفترة ، وكيف حفظوا الشعلة المقدسة التي اوقدتها الجزيرة وارادت الظلمات ان تطفئها ... ان معاني البطولة وسمات المثل الاعلى انما بدت في هذه النماذج الفريدة من الناس .. وقد كنت اتمنى اناسوق لكم بعض التفاصيل الاخرى من حياتهم .. ولكني ان جانبتها فلن اجانب الاشارة الى ناحية اصيلة اولاها هؤلاء الاعلام اكبر اهتمامهم وتلك هي حسن تمثلهم للعقيدة وحفاظهم على صفائها من كل زيغ طاريء او شبهة دخيلة .

وكما كان الصفاء اللغوي غاية هؤلاء العلماء في عملهم العلمي .. كذلك كان الصفاء في العقائد والمثل الاعلى في السلوك غاية هؤلاء العلماء في اتجاههم الخلقي . هناك حاربوا الدخيل اللغوي وهنا حاربوا الباطل العقدي.. والسياج الذي اقاموه حماية للغة اقاموا مثله حماية للعقيدة .. والفوا هناك في الدخيل والاصيل والعربي والمعرب حتى يستوى للغة نقاؤها..والفوا هنا فيالبدعوالضلالات واسرار الباطنيةحتييستويللعقيدة نقاؤها ... هناك حكموا على اللفظة الدخيلة والغريبة والضعيفة فاستبعدوها او افترضوا وجوب استبعادها من اذهانهم والسنتهم ... وهنا حكموا على الزيغ والانحراف والتلفيق واختلاف الباطن والظاهر وعرضوا روح الانسان صافية بسيطة حتى يكون سلوكه كذلك صافيا بسيطا .. وهناك آمنوا بان اللذة خيط الاستمرار لانها تحمل الماضي كله لتتفتح عن المستقبل كله ، كذلك آمنوا هنا بان العقيدة هي خط السير، وهي العاصم لهذا الخط ان ينحرف ، فلا تتردى هذه الجماعة من جديد في حمأة الضعف ورذيلة الانحطاط .

وما اشد ما يتشابه الموقفان : في العمل العلمي وفي السلوك الخلقي.. في الحفاظ اللغوي المر وفي الحفاظ على الخلق الصلب الوعر .. وكيف لا يتشابهان ؟.. اليسا نبعة واحدة عن المثل الاعلى الذي رفعه هؤلاء الاعلام ؟.

ايها السادة :

لقد قلت من قبل ان المقاومة والحفاظ والتأبي هي صور البطولة في هذه الفترة البطولية في اتجاهها العلمي والسلوكي .. ولم نستطع ان نلتمس هذه الصور عند الشعراء وانما وجدناها عند العلماء.. فقد كان هؤلاء العلماء الذين منحوا البطولة وجودها في هذه القرون بين سقوط بغداد وبين النهضة كالواحات : تجدد عزم الراكب وترد اليه امله بعد يأس .. بل انهم في بعض اللحظات بدوا لي وانا اعد هذا البحث كما لو كانوا هذه الجزر الناتئة في هذا المحيط المظلم الذي يفصل بين دخول المغول بغداد ، وبين تفتح الذهن العربي والنفس العربية في القرن التاسع عشر .. كانت جزر صغيرة ولكن العين لا تخطئها على سعة هذا الخضم الهائل .. لانها كانت تتحدى في وجودها المستقل المتميز معاني الطغيان في هذا الخضم الهائل .. كانت كانما ترفع رأسها في وجه الاعصار .. تفرح بالجزر ولكنها لا تخشى المد لانها حين ينحسر عنها ، تخرج دائما مصهورة نقية .. ان وجود هذه الجزر الصغيرة فوق اليم الطامي هو الذي زيف وجود هذا اليم لانه مكن من اقامة الجسور فوقها لتنطلق عليها القافلة التي استيقظت لتدخل التاريخ مرة اخرى .. ان قيمة هذه الجزر قوتها ، من قوة الاسس التي ترتكز عليها وعمقها .. انها قد تكون صغيرة ضيقة ولكن كلارض القاع مرتكزها.. انها كانت كالذروة التيتنبيء عن الكتلة الضخمة التي هي نهاية لها .. وقد تمثلت هذه النهاية في صفاء السلوك وفي صفاء المعتقد وفي صفاء اللغة .. واحسب ان هذه يجب ان تكون مرتكزنا نحن الجديد .

ان غرض هذه الابحاث ليس بالغرض النظري .. انها ليست عرضا لصور البطولة من حيث هو عرض بمقدار ما هي محاولة لاستخلاص المثل الاعلى على فترات التاريخ العربي.. لا اقول لصياغة المثل الاعلى ... فما يصاغ هذا المثل ، وانما هو ينطلق كشعاع دافق ممتد بين يدي الجماعة في طريق سيرها .. ونحن انما نعمل ونسافر ونكتب لنطلق هذا المثل الاعلى بين يدي طريقنا الجديدة ، طريق الوحدة ..

ايها السادة

لعلنا فعلنا ذلك ....

شكري فيصل

بمناسبة ذكرى الشاعر فوزي المعلوف

اصدرت دار صادر ودار بيروت

الرائعة الشعرية

على بساط الريح

طباعة انيقة جدا ومزدانة بالرسوم الملونة

الثمن ١٢٠٠ ق.ل